المرأة اليونانية هذا المخلوق الضعيف
بين الموروث الحضارى وعلماء الطب

د. سلوى محمود نصر

جامعة الإسكندرية

كلية الآداب

قسم الآثار والدراسات اليونانية الرومانية

١٩٩٥

المرأة اليونانية هذا المخلوق الضعيف
بين الموروث الحضارى وعلماء الطب

سلوى محمود نصر

إنحسر دور المرأة فى المجتمع اليونانى فى العصر الكلاسيكى فى نطاق المنزل والأسرة، فمجتمع اليونان القديمة كان مجتمع رجال بالدرجة الأولى، لم يكن للمرأة فيه دور بارز أو مؤثر بشكل مباشر على أقل تقدير. ومع ذلك فهذا لايعنى أن المجتمع اليونانى خلا تماما من نماذج لشخصيات نسائية قوية ومؤثرة، مثل التى صورها شعراء الملاحم أو كتاب المسرح، ومنها على سبيل المثال لاالحصر، أندروماخى، إليكترا، كليتمنسترا، ليستراتى وبراكساجورا، تلك الشخصيات التى لم تكن كلها من صنع خيال هؤلاء الشعراء، فبعض منها كان يعبر عن أنماط لشخصيات نسائية موجودة بالفعل فى داخل هذا المجتمع. ولكن مثل هذه الشخصيات كانت بلا شك تمثل الإستثناء، فى مقابل القاعدة العريضة التى تمثلها المرأة المستكينة ربة المنزل والأم، وهى النموزج الذى تهتم به هذه الدراسة فى المقام الأول، والتى على الرغم من أن دورها فى هذا المجتمع كانت له حدوده المحسوبة والمعترف بها، إلا أنها كانت من أكثر الموضوعات التى حظيت بدراسات لاحصر لها، كانت تدور فى معظمها، وحتى وقت قريب فى نطاق المنزل والأسرة وتربية الأطفال.

وبالرغم من أن دور المرأة فى هذا المجتمع، كانت له حدوده المحسوبة والمعترف بها، إلا أن موضوع المرأة كان من أكثر الموضوعات التى حظيت بدراسات لا حصر لها، كانت تدور فى معظمها، وحتى وقت قريب، فى نطاق المنزل والأسرة وتربية الأطفال (١).

ولكن العصر الهيللينستى كان هو العصر الذى صاحبه تغير ملحوظ فى وضع المرأة اليونانية، التى بدأت فى الإعلان عن تواجدها فى الساحة، وأصبح لها دور وكيان لا يمكن إغفاله، سواء على مستوى مجتمعها الصغير الذى تمثله أسرتها، أو على مستوى المجتمع الموسع بصفة عامة، حيث مارست المرأة العديد من الأعمال العامة، وحيث برزت نماذج لنساء فى مجالات متعددة (٢).

ومع ذلك فهذا التغير فى وضع المرأة الذى واكب العصر الهيللينستى، لم يأتى نتيجة لتغير مفهوم الرجل تجاه المرأة، ونظرته لها على أنها أضعف من أن يكون لها دور إيجابى فى هذا المجتمع، فقد ظل الرجل اليونانى على موقفه المتشدد تجاه المرأة، متأثرا بمفهومه للموروث الحضارى المتأصل فيه. ولكن ظروف العصر الجديد، والمد الحضارى، والإنفتاح على العالم الخارجى، فرضت نفسها، وخصوصا فى مجال التعامل مع الممالك الهيللينستية، التى حفظت بعض مجتمعاتها للمرأة حقوقها وكيانها، سواء على مستوى الحكام أو على مستوى القاعدة، ومثال على ذلك مصر (٣).

وبناء على ذلك فموضوع هذه الدراسة هو عرض لأسباب تخرج عن النطاق التقليدى الذى يمثله الموروث الحضارى فى مفهوم الرجل اليونانى المتشدد تجاه المرأة، وهو موضوع لعدد من الدراسات المحدثة، التى إتخذت محورا لها، قضية طبية، ربطت فيما بين تراجع دور المرأة فى هذا المجتمع فى العصر الكلاسيكى، وبين تكوينها الجسمانى والنفسى الأكثر ضعفا من الرجل (٤).

وجدير بالذكر أن هذه الدراسة تعتمد بشكل كبير على مصدرين أساسيين تناولا بالتفصيل التشريح الفسيولوجى لجسم المرأة، ومواضع الضعف فيه التى أشار إليها علماء الطب اليونانى، حيث يختص المصدر الأول بأمراض النساء لهيبوكراتيس، وهو عبارة عن مجموعة من الأبحاث العلاجية النظرية، كتبت فيما بين الربع الأخير من القرن الخامس، ومنتصف القرن الرابع ق.م.، حيث تنسب هذه الأبحاث إلى عدد من المؤلفين، الذين بالرغم من توافقهم فى معظم الأحيان، إلا أنهم كانوا يختلفون فى الرأى فى بعض القضايا فى أحيان أخرى، ولكنهم فى النهاية يشكلون كيانا واحدا، خصوصا فى مجال المقارنة مع المصدر الثانى الذى يتعلق بمجموعة أعمال فى علم الأحياء لأرسطو، منها على سبيل المثال "Historia Animalium" الذى يعالج فيه أرسطو عدد من الموضوعات التى ترتبط بحياة الحيوانات وتصنيفها، وسلالاتها، وأجزائها العضوية، هذا إلى جانب دراسات أخرى تنتمى إلى نفس المجموعة، منها ما يتعلق بالروح "De Anima" ومنها أيضا ما يتعلق بتفسير الأحلام، ويرجع تاريخ هذه المجموعة إلى حوالى الشطر الأخير من القرن الرابع ق.م. (٥).

ولكن قبل المضى فى استعراض بعض أمثلة لما إعتبره هؤلاء العلماء نقاط ضعف فى التكوين الجسمانى، ومن ثم النفسى للمرأة، يجدر بى التوقف والتنويه بوضع المرأة من مفهوم هذا الموروث الحضارى وشواهده، التى منها على سبيل المثال لا الحصر، ما ورد فى ملحمتى الأعمال والأيام، وأنساب الآلهة لهزيودوس، حيث يوضح أن الآلهة خلقت الرجل فى البداية، ثم منحته المرأة (٦).

النص:

"... θαῦμα δ'ἔχ'ἀθανάτους τε θεοὺς θνητούς τ' ἀνθρώπους,
ὡς ἴδον δόλον αἰπύν, ἀμήχανον ἀνθρώποισιν.
[Ἐκ τῆς γὰρ γένος ἐστὶ γυναικῶν θηλυτεράων.]
Τῆς γὰρ ὀλώιόν ἐστι γένος καὶ φῦλα γυναικῶν,..."

وهى القصة التى ترددت عبر العصور بشكلها الأسطورى، الذى تحول فيما بعد إلى مضمون دينى كما جاء فى الإسلام على سبيل المثال (٧).

أو كما يوضح هيزيودوس فى أنساب الآلهة بالذات، حيث يتحدث عن المرأة على أنها الأنثى والزوجة التى تعيش مع معشر الرجال لتلحق بهم الأذى، فلا نفع لهن مع الفاقه، ولكنهن على إستعداد للمشاركة فى الثروة، مثلهن إياهن بجموع نحل العسل، التى تعمل فيها الشغالات لتمتلئ بطون من يقبعون فى المستودع، بإنتاج ومجهود غيرهم، وهكذا النساء فهن وبال على الرجال ومتآمرات فى الشر (٨).

النص:

"... πῆμα μέγ' αἳ θνητοῖσι μετ' ἀνδράσι ναιετάουσιν
οὐλομένης πενίης οὐ σύμφοροι, ἀλλὰ κόροιο·
ὡς δ' ὁπότ' ἐν σμήνεσσι κατηρεφέεσσι μέλισσαι
κηφῆνας φόσκωσι, κακῶν ξυνήονας ἔργων·
αἳ μέν τε πρόπαν ἦμαρ ἐς ἠέλιον καταδύντα
ἠμάτιαι σπεύδουσι πιθεῖσί τε κηρία λευκά,
οἳ δ' ἔντοσθε μένοντες ἐπηρεφέας κατὰ σίμβλους
ἀλλότριον κάματον σφετέρην ἐς γαστέρ' ἀμῶνται·
ὡς δ' αὔτως ἀνδρεσσι κακὸν θνητοῖσι γυναῖκας..."

وفى هذا الصدد، ففكرة خلق المرأة بعد الرجل، ترددت فى القصص اليونانى، إلا أنها تراجعت فى فترة ما، أمام مد الفلسفة الطبيعية، التى ظهرت فى منطقة أيونيا فى القرن السادس ق.م.، فى الوقت الذى لم تعد فيه الأساطير بشكل عام تكفى لإعطاء التفسير المنطقى المقبول لخلق العالم (٩).

هذا من جانب، ومن جانب آخر وفى إطار الحديث عن مضمون الموروث الحضارى اليونانى المتشدد تجاه المرأة، نجد أن هذا المضمون يستند فى الأساس على اختلاف الشكل الخارجى للمواصفات الجسدية فى وضعيا المثالى للرجل والمرأة، بحيث تصبح هذه المواصفات المثالية هى النموذج المعتمد، وأى إختلاف عن ذلك يعتبر خروجا عن القاعدة، التى بموجبها يتم التصنيف، الذى يرتبط إلى حد كبير جدا بالسلوك، ومن ثم يتحدد على أساسه الدور المنوط بكل من الجنسين فى مجتمع اليونان، حيث حدد الرجل بالخروج للعمل أو المدينة، بينما كان دور المرأة بين جدران المنزل وفى حدود الأسرة، وهو دور لا يمكن بأى حال الإستهانة بأهميته، بل إن المرأة تستطيع من خلاله أن تثبت وجودها وتحقق ذاتها، إذا ما أدته على الوجه الأكمل. وبالرغم من ذلك ظلت وفقا للمفهوم التقليدى، فى مرتبة أقل من الرجل، تعتمد عليه، ومسئولة منه، وذلك على إعتبار أنها غير قادرة على عدد من الممارسات التى تتطلب مجهودا عضليا (١٠).

هذا ونستطيع أن نرى هذا المضمون يتردد عند كسنوفون على لسان بطله إيسخوماخوس، حيث يرى أن الطبيعة قد حددت لكل جنس دوره فى الحياة، وإنه لمن الأوفق أن يلتزم كل منهما بالدور المنوط به، والمجال الوحيد الذى تتفرد به المرأة من وجهة نظره، هو حضانتها للمولود، والمحافظة على ممتلكات الأسرة، وهذا فى حد ذاته – حسب قوله – أمر ليس بالسيئ "οὐ κακὸν εστί" (١١) هذا بالرغم من أن هذه الخاصية الأخيرة، وهى المحافظة على ممتلكات الأسرة، ليست بمستحيلة على إمكانيات الرجل، الذى يستطيع أن ينهض بالمهام المنزلية الأخرى التى تقوم بها المرأة، وبنفس القدر من الجودة، بل إن إيسخوماخوس نفسه يبدو فى الموقع الذى يقوم هو فيه بتدريب زوجته على النهوض بأعمال المنزل، وهذا إن دل على شئ فهو يدل على أن كسنوفون لا يجد غضاضة فى أن يقوم الرجل وقت الحاجة بالمهام المنوطة بالمرأة (١٢).

هذا وفى إطار الحديث عن أهم نقاط الضعف فى جسم المرأة، التى توافق فيها رأى كل من الهيبوقراطيين من جانب وأرسطو من جانب آخر، وعلى الرغم من أننى لست هنا بصدد بحث نقاط الإتفاق والإختلاف بين الطرفين، فمع ذلك يجب الإشارة على أقل تقدير إلى أنه بالرغم من إختلاف التفاصيل، وطريقة التناول التى إتبعها كل من الطرفين، إلا أن مفهوم الموروث الحضارى اليونانى، كان الأساس المشترك الذى إنطلقا منه، وقادهما لنفس النتيجة التى تتلخص فى كون المرأة مخلوقا ضعيفا بطبيعته عن الرجل.

وكما كان الأساس الذى انطلق منه كل من الهيبوقراطيين وأرسطوا واحدا، كانت هناك أيضا بعض المبدئيات التى لم يكن هناك مجالا للإختلاف فيها بينهما، ومنها على سبيل المثال، قضية إختلاف الشكل الخارجى فيما بين الرجل والمرأة، الذى لاتتضح معالمة إلا عند سن البلوغ، عندما يبدأ كل جنس فى الإعلان عن خصائصه التى تختلف عن الجنس الآخر، وتبدأ الأعضاء المختلفة فى أداء وظائفها، التى على أساسها تحدد نقاط القوة والضعف، علما بأن البوادر الحقيقية لهذا الإختلاف من المفروض أنها تبدأ فى المرحلة الجنينية (١٣).

أما بالنسبة لنقاط الضعف، فأول وأهم عناصرها من وجهة نظر هؤلاء العلماء، هو مايختص بقضية الحيض، حيث توصلوا إلى تشخيص مؤداه، أنه فى سن البلوغ تتسع المسام "ἀραιαί" ليصبح جسم المرأة أسفنجيا وممتلئا (١٤).

"σπογγοδες ἀραιαί καὶ πίονες"

وذلك استعدادا لامتصاص الدم الزائد من معدتها، والذى يتحول بدوره – حسب الإعتقاد الذى كان سائدا – من الغذاء المختزن. هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن طبيعة جسم الرجل غير المسامية لاتمتص السوائل الزائدة فى الجسم، حيث تقوم الغدد بهذه المهمة، التى لاتبدأ فى أداء وظيفتها فى جسم الرجل، إلا بعد أن يكون قد إستنزف معظم رصيدة من السوائل فى المجهود العضلى الشديد. وبما أن الأنثى فى مرحلة النضوج الحقيقية، ولاتستطيع أن تطوع جسدها ليقوم بنفس المجهود العضلى الذى يقوم به الرجل، فهى أضعف منه (١٥).

وإذا كانت هذه القاعدة العامة، فهناك بالضرورة إستثناء لهذه القاعدة، حيث نجد مثلا فى عدد من المجتمعات القديمة وعلى رأسها بلاد اليونان، أو حتى فى مجتمعات العصور الوسطى التى عرفت الرق والعبودية، حيث كانت تقوم فيها الإماء بمجهود عضلى كبير، لايقل بأية حال عن قدرة الرجل إن لم تفقها فى بعض الأحيان.

هذا وفى إطار الحديث عن التأثير السلبى للحيض على الناحية العضوية فى المرأة، نجد أرسطو الذى يرى أن تدفق دم الحيض هو السبب المباشر فى إعتلال صحة المرأة وشحوبها، وبالتالى فهى تبتعد عن الصحة المثالية التى يتمتع بها الرجل (١٦)، بل ويذهب أرسطو إلى أبعد من ذلك، عندما يعقد مقارنة بين الشأن فيما بين المرأة وأنثى الحيوانات، بل ويعتقد أيضا أنه إذا كان

الذكر عموما فى كل جنس يتفوق فسيولوجيا على الأنثى، فإن المعدل يكون أكثر إرتفاعا فيما يخص البشر (١٧).

كان هذا فيما يخص التأثير السلبى للحيض على الناحية العضوية للمرأة، أما فيما يخص الناحية النفسية، حيث يرى هؤلاء العلماء أن جسد المرأة الضعيف بالفطرة يجعل للحيض تأثيرة السلبى على مشاعر المرأة وأدائها الذهنى، وإتزانها العقلى، ومن ثم يصبح دورها فى المجتمع دور ثانوى محدود (١٨).

وحديث علماء الطب اليونانيين عن قضية الحيض كواحدة من أهم نقاط الضعف فى جسم المرأة، لم يتوقف عند حد السلبيات، ولكنه تطرق لعدد من الإيجابيات التى كان أهم محور لها هو العامل الذى جعل من المرأة ضرورة لاغنى عنها فى هذا المجتمع، وهو إمكانية التناسل، وهى وظيفة الحيض كما يرى أرسطو (١٩)، أو مجموعة هيبوكراتيس، الذين يرون أن تخلص جسم المرأة من الأشياء الزائدة عن طريق الحيض مرة كل شهر، لهو كفيل بحمايتها من الأمراض، وهو ضمانها الوحيد للتمتع بصحة جيدة (٢٠).

هذا ولايكتمل الحديث عن التناسل إلا بذكر العضو الأكثر أهمية فى جسم المرأة المعنى بهذه الخاصية وهو الرحم، الذى عده علماء الطب اليونانى نقطة للضعف الثانية بعد الحيض عند المرأة، وهو العضو المسئول عن إمتصاص السائل من بقية أجزاء الجسم السامية الإسفنجية – التى سبقت الإشارة إليها – ثم تفريغها على هيئة دم الحيض، وإذا عجز الرحم عن أداء هذه المهمة، مما يؤدى إلى إحتجاز الدم فى جسد المرأة، الذى إذا طالت مدة إحتباسه دون سبب وجيه مثل الحمل، من الممكن أن يكون أذى. هذا بالإضافة إلى أن رحم المرأة التى سبق لها الإنجاب، تسهل مهمة الحيض الذى يجد طريقة بلا عقبات، مهما كان كمه قليل (٢١).

ولكن السبب الأساسى الذى جعل هؤلاء العلماء يعتبرون الرحم نقطة ضعف فى جسم المرأة، هو اعتقادهم بأن الرحم لو لم يرتكز فى الجسد بسبب الحمل أو الإشباع المنتظم، فهو يجف ويصبح عرضة للإنجذاب نحو الأعضاء الرطبة فى الجسم مثل الكبد أو المثانة أو المستقيم، وتكون إمكانية حركة الرحم أكثر سهولة إذا كانت المعدة فارغة، بحيث لاتعترض طريقة (٢٢)، ولذلك فإن الفتيات

الصغيرات والأرامل والنساء اللاتى يفتقدن الإشباع المنتظم، يكن عرضة أكثر من غيرهم لتغير مكان الرحم، الذى يطلق عليه فى هذه الحالة "الرحم الهائم"
ويعد أفلاطون أهم من روج لهذه الفكرة فى محاورة تيمايوس (٢٣).

وكما كان للجانب السلبى فى الحيض يتمثل فى إعتلال صحة المرأة وضعفها، كان أيضا الرحم الهائم، الذى اعتبره علماء الطب اليونانى تعليلا مناسبا للعديد من الأمراض التى تعانى منها المرأة، فهو يفقد المرأة المقدرة فى السيطرة على أنوثتها، وذلك على أعتبار أن نظرية الرحم الهائم تعطى الإنطباع انه دون تدخل الرجل بصفته كطبيب أو بصفة المعاشرة، يظل هذا الرحم عامل ضغط على المرأة، يؤثر على حياتها ونفسيتها (٢٤).

الجزئية الثالثة التى أعتبرها علماء الطب اليونانى ضمن نقاط الضعف فى جسم المرأة بعد قضيتى الحيض والرحم، هى الثدى الذى يعد ضمن الغدد، التى يختلف حجمها فيما بين الرجل والمرأة، وبناءا على ذلك أعتبر مؤشرا آخرا على مدى التراخى الذى إتصف به جسم المرأة (٢٥). والثدى هو أحد الأعضاء التى لاتتضح أوجه الخلاف فيها بين الرجل والمرأة إلا عند سن البلوغ، حين يبرز، بالنسبة للمرأة على وجه الخصوص، وعندما يتكون فيه اللبن، وهو الأمر الذى لايحدث بالنسبة للرجل، نظرا لطبيعة جسده المحكم. ولكن مكمن الضعف فى هذه الغدة بالنسبة للمرأة، كما شخصه علماء الطب اليونانى، يأتى على اعتبار أنه الجزء الذى يجعل المرأة عرضة أكثر من الرجل للتصرف غير العقلانى، وذلك نظرا لأن ثدى المرأة يعتبر من أهم مراكز الشعور بالنسبة لها، الذى يتأجج فيه الدم فى حالة الغضب (٢٦).

يتضح مما سبق أن محاولة علماء الطب اليونانى، إبراز نقاط الضعف فى جسم المرأة، أعطت الواجهة العلمية لمفهوم الموروث الحضارى المتأصل عن ضعف المرأة كمخلوق، يأتى فى المرتبة الثانية بعد الرجل. وبالرغم من ذلك فليس من المستبعد أن يكون إحساس هؤلاء العلماء بأهمية المرأة فى هذا المجتمع، من واقع إمتلاكها خاصية التناسل – كما سبق وأوضحت – هى التى دفعتهم الى المبالغة فى إظهار وتجسيم نقاط الضعف فيها، لكبح جماحها ووضعها فى إطار ضيق لاتستطيع منه فكاكا، خصوصا لو عرفنا أن تاريخ بلاد اليونان مرت عليه فترات تفوق فيها تعداد

النساء على الرجال، بالذات فى أعقاب الحروب الكبرى، التى كانت تأتى على أعداد كبيرة من الشباب والرجال.

وأغلب الظن أن حرص هؤلاء العلماء على إثبات هذا المفهوم، هو الذى أوقعهم فى بعض الأحيان فى عدد من الأخطاء، وهو أمر طبيعى ووارد بالقياس لظروف العصر وإمكاناته المتاحة، ولكن البعض فسر ذلك على أنها مغالطات، قادت إلى الإعتقاد بأنهم كانوا يطوعون معلوماتهم فى طب النساء لخدمة هذا الهدف، والأمثلة على ذلك كثيرة، أنتقى منها مثلا رأى أرسطو فيما يخص عدد الثنايا الموجودة فى جمجمة الرجل، التى تفوق مثيلاتها لدى المرأة، وذلك على إعتبار أن مخ الرجل أكبر حجما من مخ المرأة، ولذلك فهو فى حاجة إلى مزيد من التهوية التى توفرها تلك الثنايا (٢٧). هذه النظرية التى إستمرت حتى إلى عصرنا الحالى، بالرغم من تغير ظروف العصر والإمكانات المتاحة، حيث ساد الإعتقاد أن رأس الرجل أكبر حجما من رأس المرأة، وبالتالى فحجم مخ الرجل يفوق المرأة، ولذلك فهو يتمتع بذكاء أكثر من المرأة. مع أن الثابت أن عدد الثنايا واحد لدى الجنسين. هذا بالإضافة إلى أن أرسطو كان يهتم فيما يخص التشريح الفسيولوجى للمرأة بالجانب النظرى فقط، دون الممارسة العملية أو العلاجية.

مثال آخر من نفس النوعية يسوقه أرسطو أيضا، عندما يذكر أن الرجل لديه عدد أكبر من الأسنان عن المرأة (٢٨)، حيث يربط بين ذلك وبين طول عمر الرجل، الذى على حد تفسيره، يكون له القدرة على مضغ الطعام مضغا جيدا، ومن ثم تكون قدرته على الهضم أفضل. وهو خطأ من جانب أرسطو لأنه من المعروف أن كل جنس يتمتع بنفس عدد الأسنان على الأقل فى البداية (٢٩).

هذا بالنسبة لبعض الأمثلة الخطأ التى وقع فيها أرسطو، أما بالنسبة للهيبوقراطيين، فمن الممكن أن وقوعهم فى عدد من الأخطاء يرجع إلى أنهم كانوا لايترددون فى الربط بين معلوماتهم عن التشريح الفسيولوجى للحيوانات الثديية والمرأة، بالذات عندما كان يتعذر وجود مثال بشرى حى لديهم أو طالما لم يتوفر لديهم مايثبت العكس (٣٠).

هذا من جانب، ومن جانب أخر، فجزء من معلوماتهم فيما يخص طب النساء كانوا يستقونه من بعض النسوة اللائى تطوعن بوصف مايعترينهن من أعراض، مثلا بسبب عدم ثبات الرحم، وذلك مثل الإحساس بالإختناق "Pnix" ، الأمر الذى كان من الممكن أن يؤدى فى بعض الأحيان إلى عدم دقة المعلومات، خاصة إذا لم تقترن بالفحص الإكلينيكى.

يتضح مما سبق، مدى تأثير علماء الطب اليونانى بمضمون الموروث الحضارى عن ضعف المرأة، هذا المضمون الذى كان يشكل بالضرورة جانبا كبيرا من كيان هؤلاء العلماء الفكرى والوجدانى، فجاءت نظرياتهم الطبية عن نقاط ضعف المرأة تأكيدا لهذا المفهوم، ورغبتة فى استمرار وضع المرأة ودورها المحدد فى المجتمع اليونانى على ماهو عليه، فكان هذا هو الإطار الذى تحركوا فى حدوده، دون أن تتخذ محاولتهم هذه موقف العداء من المرأة، كما فعل غيرهم من العلماء والمفكرين (٣١).